ثقب في الجدار

اليوم تم طردي من عملي في المستشفى الخاص الذي يمتلكه طبيب مشهور، كنت أعرف تماماً ماذا فعلت، كنت أسرق بعض الأدوية التي في عهدتي، آخذ بعض الأقراص المنومة لا أكثر، لم تكن فعلتي تتناسب مع رد الفعل، غادرت عملي بشكل إجباري، كان كلام الطبيب معي حاداً وقاطعاً، قالها لي بلهجة آمرة: بره.

غادرتُ حجرة مكتبه، وما أن فتحت الباب حتى ظهرت من خلفه امرأة جميلة، لن أنسى ملامحها ولا عطرها الأخاذ، ولا ملابسها الأنيقة، كان من الطبيعي أن أسأل ـ رغم حزني وشرودي ـ عن هذه السيدة، عرفت أنها زوجة الطبيب.

سرتُ كثيراً قبل العودة إلى البيت، كان الطريق مزدحماً بالبشر، ولكنه أمامي فقط كان خالياً تماماً، كنت أشعر بوحدة شديدة، أنظر إلى الأرض، أبحث عن أي شيء قد تمنحه لي السماء، ولكن لا شيء.. الأرض خالية.

عدت إلى غرفتي المتواضعة، ليس هناك ما أفعله، أفرغت جيوبي

من النقود، بحثت في كل ملابسي عن أي أوراق نقدية شاردة، وضعت كل ما أملك ـ الآن ـ أمامي، كان من السهل أن أعرف أنني في أزمة شديدة.

مضت الساعات ثقيلة وأنا ما زلت في مكاني، لم يكن هناك أي حلول، طرحت كل شيء وأضفت الكثير، والنتيجة صفر، حاولت الهروب فغلبني النوم، بدأت ألتقط أصواتاً حادة في غرفتي، كنت أعتقد في البداية بأنني أحلم، ولكنني أدركت أنها حقيقة لا حلم، عندما فتحت عينيّ واكتشفت أن الأصوات ما زالت موجودة كأنها في غرفتي.

ثم بدأت ألمح بعض الدخان يتصاعد من أعلى دولاب حجرتي، دخان رقيق يشبه دخان السجائر له رائحة حلوة، شعرت ببعض الخوف، لكنني أسرعت نحو الدولاب وحركته من مكانه، كان من السهل أن أدفعه، فهو متهالك ضعيف، من خلفه أبصرت أعلى الحائط ثقباً صغيراً تنبعث منه الأبخرة، ويصدر عنه الصوت.

أحضرت كرسياً وصعدت حيث الثقب، نظرت خلاله، كان من السهل أن أميز محتويات الحجرة المجاورة لي رغم الظلام، كانت هناك أضواء خافتة تمنحني الرؤية.

استطعت بسهولة أن أحدد معالم حجرة جاري، هذا الجار الذي كنت أتجنبه، فهو مشعوذ مشهور في الحارة التي أسكنها، بل هو على رأي سكان الحارة " عم بركة " .

كان عم بركة يجلس وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة، الغرفة كانت مليئة بالبخور ودقات الطبول، استطعت أن أميز السيدة التي كانت تتمايل مع الإيقاع، إنها صاحبة البيت الذي أسكنه أنا وجاري هذا، إنها السيدة التي تطالبني بالأجرة كل شهر وتهددني بالطرد إذا تأخرت في السداد.

توقف الإيقاع وسكن الصوت، انصرف الجميع وبقيت السيدة، كانت تتحدث بصوت مسموع: هل سيزول الصداع يا سيدنا ؟

ـ إنشاء الله . . أراك غداً.

ناولته نقوداً لم أعرف عددها، انصرفتْ وبقى هو وحيداً.

هبطتُ، استلقيت على سريري، أخذت أفكر فيما رأيت حتى غلبني النوم مرة أخرى.

في مساء اليوم التالي وفي نفس الموعد تماماً، كانت صاحبة البيت تجلس مرة أخرى في حجرة عم بركة: مازال الصداع كما هو. . لم أنم البارحة. . الخيالات كانت تطاردني من كل صوب.

ـ هل تشربين الماء الذي أعطيته لك ؟!

ـ نعم

ـ هل تغلقين نور الغرفة أثناء الليل !

ـ نعم

هنا صرخ عم بركة في وجهها بشيء من الحدة: لا.. لا تغلقي النور مرة أخرى.. هذا هو السبب !

غادرت وهي تتمنى أن تكون هذه الليلة هي ليلتها الأخيرة مع الصداع والأرق.

كان يراقب الموقف من خلال الثقب كل ليلة، نسى ما هو فيه، سمع حكايات كثيرة، عرف الكثير عن أهل الحارة وغيرهم. عندما هبط من على الكرسي، تذكر أن أوراقه النقدية بدأت في النفاد، بدأت ترحل هنا وهناك.

فتح دولاب ملابسه، أخرج شريط الدواء الذي كان يتناوله لكي ينام، أفرغ محتويات الشريط أمامه، بدأ في طحن الدواء حتى أصبح بودرة بيضاء، أحضر برطماناً قديماً داكن اللون وصغير الحجم، وضع فيه المسحوق.

في المساء سمع طرقاً على باب حجرته، كانت خادمة ـ صاحبة

البيت ـ ، فتح لها الباب، دخلت مسرعة، أحاطته بذراعيها وهي تردد بدلال: الأجرة.

قَبَّلها. . إنه يحبها، فهي فتاة جميلة، تحلم بأن يتزوجها، وهو لا يمتلك حتى أن يحلم، كل ما يعرفه أنه يحبها وأنه يلتقي بها من وقت لآخر، إنها شديدة الكرم معه.

ناولها أجرة البيت والبرطمان الصغير: أريدك أن تقنعي سيدتك بأن تتناول كل يوم قبل أن تنام ملعقة صغيرة من هذا المسحوق. . هذا المسحوق سيكفيها ثلاثة أيام.

نظرت إليه بشيء من الحذر: هل تريد أن تقتلها ؟

حمقاء، تفكير أحمق محدود مثلها، زغدها في كتفها: لا. . أنا أريد أن أعالج صداعها وأرقها الدائم.

ـ وكيف عرفت أنها تعاني من الصداع والأرق.

لم يخبرها بالحقيقة، احتفظ بسره، كان من السهل إقناعها بأي شيء، غادرتْ بعد أن أخذت الأجرة وسمعت قصة لا يصدقها صبي صغير ولكنها صدقتها، فمن يتكلم. . حبيب القلب، لا يهم أن تقتنع بكلامه. . المهم أن تسمعه يتكلم.

مضت أيام، غابت فيها السيدة عن زيارة عم بركة، وبعد أسبوع

كامل كانت الخادمة تطرق بابه مرة أخرى، دخلت كالعادة بسرعة، طوقته بذراعيها، قَبَّلته ثم بدأت في الكلام: أقنعت سيدتي بأنني عثرت على رجل بركة آخر، تناولت المسحوق، عرفت أخيراً طعم النوم الهادئ.

كان يتابع كلامها بشغف، لا يريدها أن تتوقف، ردد بسرعة: المهم.

تابعت: لقد نامت جيداً الفترة الماضية.. أخبرتني إنها ارتاحت تماماً لذلك الرجل الجديد.. وإنها تريد المزيد من المسحوق الأبيض.

ـ ممتاز.. سأحضر لها المزيد، ولكن أخبريها أن ثمن البرطمان الذي سوف يكفيها لمدة أسبوع آخر.. مائة جنيه.

ـ حسناً.

غادرتْ وبعد قليل عادت بالنقود.

بدأت اللعبة، كان يعرف الأخبار من خلال ثقب الجدار، وما يستطيع أن يعالجه بالدواء يجد الطريق إلى صاحبه أو صاحبته، بدأت الأموال تتدفق، أصبح ثقب الجدار وسيلة وصول، تغيرت حياته ولكنه لم يتزوج الخادمة رغم إنها كانت همزة الوصل بينه وبين أهل الحارة، كان يحبها، كانت كثقب الجدار وسيلة وصول، عوضها

بالـنقود، أغدق عليها، طلب منها أن تبدل ملابس الخدم فهي لم تعد تلـيق بهـا، قبلت بالبديل، أصبحت تساعده من أجل المال وليس من أجل الزواج، استبدلت الزواج بحب لا نهاية له.

كانـت ليلـته الأخـيرة في هذه الغرفة المتواضعة، اكتفى بما حصل علـيه، مـلّ حياة التلصص، قرر أن يترك الحجرة وأن يرحل بعيداً عن هذه الحارة التي تحمل في جنباتها ذكريات يحبها وذكريات يكرهها.

سـيحتفظ بالحجـرة، سيداوم على دفع إيجارها، لن يسمح لسره أن يغـادر جـدرانها، رفـع إيجارهـا عـند صـاحبة البـيت، كانت هذه الحجرة " وش السعد ".

قـبل أن يغـادر قـرر أن يلقـي نظرة أخيرة على عم بركة، أحضر الكرسـي، صـعد، شـاهد في حجـرة المشعوذ امرأة شديدة الأناقة، لا تتناسـب مطلقاً مع الحارة، استطاع أن يشم رائحة عطرها التي تغلبت علـى رائحـة البخور، كانت امرأة جميلة تتحدث بصوت هادئ، شعر أنـه رآهـا مـن قـبل، دقـق النظر، كادت عيناه أن تخترق الجدار كله، أسعفته الذاكرة، عرفها.. إنها زوجة الطبيب.

سمـع شكواها، عرف أنها تعاني زواجاً فاشلاً لا تريده، لابد أن يجـد طـريقاً لها، فطريقها لا يحتاج إلى أدوية مطحونة، إنها لعبة بعيدة

عـن الـدواء، لابد أن يُسَخِّر كل ما يملك في سبيل الوصول لها، فهذه المرأة قد تكون بداية لحياة جديدة، حياة يحلم أن يكون جزءاً منها أو أن تكون جزءاً منه.